موقف ابن مالك مما اختلف فيه البَصريون والكوفيون

م. شاسي

ملخص

ابن مالك هو الرجل المشهور في دراسة النحو العربي، كانت ألفيته الشهيرة قد شرحها كثير من العلماء وهي مدروسة في كثير من المعاهد والمدارس. هذا يدل على إقبال الدارسين على هذه الألفية مادة وأسلوبا. ويدل كذلك على نجاح ابن مالك في عرض القواعد المختارة مما اتفق ومما اختلف فيها بين النحاة حتى تكون قواعده ثابتة غير مثيرة للرفض والجدل. فقد نجح ابن مالك في تعيين الراجح والمرجوح بل في ترجيح ما اختلف فيه البصريون والكوفيون. هذا هو الرجل ذو موقف معين مما اختلفت المدرستان في النحو. وما هو هذا الموقف؟ ليس من السهل للدارس تعيين موقف هذا الرجل إلا بعد معرفة خطواته في معالجة المسائل الخلافية. فالغرض من هذا البحث هو معرفة موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون. هل كان يتمسك بواحد منهما تعصبيا أم كان يباين كلا منهما ويسلك مسلكا خاصا له أساسه الموضوعي العلمي؟ أم غير ذلك؟ ولحل هذا السؤال يقوم الباحث بالاطلاع على أفكاره وخطواته في معالجة الخلافية. ويعتمد البحث على كتابه شرح التسهيل، لأن فيه مباحثه العميقة وتحليلاته المفصلة عن المسائل النحوية. ولوحظ أنه قد سلك الخطوات التالية: (١) فهْمُ جوهر كل مسألة خلافية، (٢) قراءة جميع الآراء المختلفة في كل مسألة قراءة دقيقة، (٣) فهم جوهر كل رأي في كل مسألة، (٤) ذكر الآراء التي يحسن الكلام عليها، (٥) نقد كل رأي، (٦) اختيار رأي لإثباته قاعدة، (٧) تقرير القاعدة وإثباتها. وهذه الخطوات تتصف بهذه الخصائص: (١) التعادل والتحادي أي عدم التعصب، (٢) الانتقاد والتحقق، (٣) الاحترام، و (٤) الحكمة لتسهيل الطلاب لعملية التعلم. وبعدُ، فقد حصل هذا البحث على نتيجة أن ابن مالك يقف مما اختلف فيه البصريون والكوفيون موقفا حذرا علميا موضوعيا وتربويا بمعنى أنه لا يميل إلى أحدهما ميلا تعصبيا بل يقيم أفكاره النحوية على أساس موضوعي ذي قيمة تربوية وتعليمية، وقد دلت عليه خصائص خطواته عند حل المشكلات والمسائل النحوية عامة والمسائل الخلافية خاصة. فهو بذلك بلغ إلى تقعيد النحو بنجاح حتى يعترف معظم النحاة بدوره العظيم في تطوير النحو.

الكلمة الرئيسية: ابن مالك، البصريون، الكوفيون، المسائل الخلافية،

الأول–المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الذي تقدست أسماؤه وعظمت صفاته عن الشبه والمثال، أحمده حمدا لا يبلغه القائلون، ولا يحصيه العادون، وصلاة وسلاما على رسولنا الكريم، أفصح العرب لسانا وأبينهم نطقا . وبعد ،

فإن القضية الخلافية بين البصريين والكوفيين من أظهر القضايا بين علماء اللغة في العصور القديمة . ولم تزل النحاة يتحدثون عن طرف منها عند الكلام على المسائل النحوية التي فيها خلافية . وهذه الخلافية مهما كانت ظاهرة في بداية نشأة النحو فإنها لم تكن مستمرة الأثر في أذهان دارسي النحو حيث لا يقعون بسببها في الحيرة .

ورأى الباحث أن هذه الحالة بعض عاملها إنما يرجع إلى فضيلة ابن مالك ودوره في إثبات القواعد النحوية كما يرجع إلى أثره القوي في أفكار مَن بعده من العلماء المتأخرين . هؤلاء النحاة –في نظر الباحث– كأنهم يتفقون على ما قرّره ابن مالك في كتابه الشهير ألفية ابن مالك . كانت ألفيته الشهيرة قد شرحها كثير من العلماء وهي شائعة ومدروسة في كثير من المعاهد والمدارس . هذا يدل على إقبال الدارسين على هذه الألفية مادة وأسلوبا . ويدل كذلك على نجاح ابن مالك في عرض القواعد المختارة مما اتفق ومما اختُلف فيها بين النحاة حتى تكون قواعده ثابتة غير مثيرة للرفض والجدل . قالت خديجة الحديثي إن مؤلفاته النحوية وأشهرها الألفية ما زالت عماد الدرس النحو في الأقطار العربية .[1] وقال السنجرجي: ولا يزال نحو ابن مالك شائعا إلى اليوم في المعاهد التي تعنى بدراسة النحو .[2] وقال الطهطاوي: فقد جعل الله لابن مالك لسان صدق فيمن بعده، فمؤلفاته وأقواله تناقلتها العلماء في كتبهم مشارقة ومغاربة .[3]

وعند مواجهة الخلافية لا شك أن ابن مالك قد نجح في تعيين الراجح والمرجوح بل في ترجيح ما اختلف فيه البصريون والكوفيون وغيرهم من سائر المذاهب في ذلك العهد . هذه القواعد المتينة التي

---

[1] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، (الأردن: دار الأمل، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م)، ط.٣، ص. ٣٤٩.

[2] مصطفى عبد العزيز السنجرجي، المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، (مكة المكرمة: الفيصلية، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ م)، ط.١، ص. ١٠.

[3] محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، (القاهرة: دار المعارف، دت)، ص. ٢٦٣.

حصل عليها الرجل تدل على هذا النجاح. فإن لم يكن كذلك فسرعان ما يذهب أثر محصوله في الأذهان.

فينبع منها السؤال ما الذي فعله ابن مالك في تقرير قواعده النحوية وكيف خطواته في معالجة المسائل الخلافية وما موقفه مما اختلف فيه البصريون والكوفيون حتى كان أثره عميقا ومقبولا لدى الدارسين جيلا بعد جيل. هذا هو الرجل بالطبع ذو موقف معين مما اختلفت المدرستان في النحو. وما هذا الموقف؟ ليس من السهل للدارس وصف موقف هذا الرجل إلا بعد معرفة خطواته في معالجة المسائل الخلافية. فلابُدّ عليه النظر إلى هذه الخطوات وخصائصها. فالغرض من هذا البحث هو معرفة موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون. هل كان يتمسك بواحد منهما تعصبيا أم كان يباين كلا منهما أم كان يسلك مسلكا له أساسه الخاص؟

هذه الكتابة تبحث عن موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون. يعني موقفه الأكادمي الذي لا بد لمعرفته من معرفة خصائص خطواته لحل المشكلات. فالمراد بالموقف هنا هو الخصائص التي تتصف بها خطوات ابن مالك في معالجة الاختلاف بين البصريين والكوفيين. وأما الاختلاف المدروس في هذا البحث فإنما يقتصر على الاختلاف في ناحية المسائل أي القواعد النحوية فلم يتناول الاختلاف في النواحي الأخرى.[٤] ويرتكز البحث على المسائل الخلافية التي فيها رأي ابن مالك، لأنه لا يقدم البحث عن هذه المسائل الخلافية جميعها بل يقدم البعض منها. هذا هو التحديد الذي قرره الباحث ليكون البحث على سبيل التوجيه والتنظيم. ويرجو أن يكون هذا البحث نافعا لزيادة التعرف بشخصية ابن مالك الأكادمية والاعتراف بعظمة دوره في إثبات القواعد وفي تعليمه ليكون أسوة حسنة لمن خلفه من متعلمي اللغة العربية وعلومها، بجانب أنه سينفع لزيادة المعرفة عن المسائل الخلافية بين أهل البصرة والكوفة وما فيها من آراء ابن مالك.

يعدّ هذا البحث دراسة مكتبية يعتمد تناول بياناته على كتب في المكتبات. ويستخدم منهج تحليل المضمون من خلال النصوص التي تبحث عن المسائل

[٤] قد تعددت وجوه الاختلاف بين مدرستي البصرة والكوفة. فيمكن نظرها من عدة النواحي: الأدلة والأصول والعلل والقواعد والمصطلحات ومنهج كلتا المدرستين في هذه النواحي. وهذا البحث يرتكز على الاختلاف بينهما خاصة في ناحية القواعد النحوية.

الخلافية بين البصرة والكوفة والتي تبحث عن رأي ابن مالك في هذه المسائل وعن خطواته في معالجة هذه المشكلة. ويعتمد هذا البحث على مصادر رئيسية منها: الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، وثلاثة كتب لابن مالك: شرح التسهيل وشرح الكافية الشافية ومتن الألفية. وقد يراجع إلى مصادر إضافية تزيد البيان عن سيرة حياة ابن مالك وعن مذهبي البصرة والكوفة.

وينقسم هذا البحث إلى خمسة فصول: الفصل الأول المقدمة التي تتناول الكلام على خلفية البحث وتحديده وهدفه وفائدته وطريقته ونظامه. والفصل الثاني هو التعرف بابن مالك ويتحدث فيه عن حياة ابن مالك وآثاره: نشأته ووفاته، وشيوخه، وتلاميذه، ومكانته العلمية، ومؤلفاته. والفصل الثالث هو التعرف بمدرستي البصرة والكوفة ويتحدث فيه عن مدرسة البصرة أعلامها وخصائصها وعن مدرسة الكوفة أعلامها وخصائصها. والفصل الرابع يتناول البحث عن موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون. هذا الفصل يشتمل على: (١) تعرض بعض الأمثلة الخلافية التي تكون فيها آراء ابن مالك، (٢) تفصيل الخطوات التي سلكها ابن مالك في معالجة المسائل النحوية ولا سيما الخلافية، (٣) ملاحظة الخصائص التي تتصف بها هذه الخطوات ليستخلص من هذا التحليل نتيجة القول في موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون؛ والخامس خاتمة، وهي الاستنتاج والاقتراح.

الثاني– ابن مالك حياته وآثاره

أولا– نشأته ووفاته

الشيخ جمال الدين ابن مالك: محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الجياني النحوي. [٥] فهو الطائي نسبا الجياني الأندلوسي منشأ الدمشقي إقامة ووفاة، الشافعي النحوي اللغوي. قال القرني اختلف في اسم والده، فهناك من ذهب إلى أن

[٥] تنظر ترجمته في (١) الحافظ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، (جيزة: دار هجر، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م) الطبعة الأولى، ج. ١٧، ص. ٥١٣-٥١٤؛ و(٢) جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م)، ط.١، ص. ٢٥٠. رقم الأسمأء: ١١٣٦؛ و(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ١، بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م)، ج.١، ص.١٣٠.

اسمه عبد الله بن مالك، في حين ذهب آخرون إلى أنه عبد الله بن عبد الله بن مالك.[٦]

ولد ابن مالك بجيّان في الأندلس سنة ٦٠٠ هـ على الأغلب، وقيل سنة ٥٩٨ هـ. حفظ القرآن وتعلم القراءات القرآنية والنحو بها على يد ثابت بن خيار، ثم حدثت بعض الفتن والاضطرابات في الأندلس في تلك الحقبة، فهاجر إلى المشرق وتردد في البلاد الشامية، فسكن بحلب ومحماة ثم استوطن آخرًا في دمشق.[٧]

توفي – عليه رحمة الله – بدمشق، في الثاني عشر من شهر شعبان سنة ٦٧٢ هـ، وتتفق أغلب المصادر على هذا التاريخ. وقد صلى عليه في الجامع الأموي بدمشق، ودفن بتربة القاضي عز الدين بن الصائغ بقاسيون.[٨]

ثانيا– شيوخه

تتلمذ ابن مالك في بدايات طلبه للعلم على أيدي جّلة من العلماء في القراءات والنحو وغيرهما، ومن أهم شيوخه:[٩]

١. ثابت بن خيار الكلاعي (ت. ٦٢٨ هـ) أخذ عنه القراءات والنحو في جيان بالأندلس.
٢. أبو صادق: الحسن بن صباح المخزومي المصري (٦٣٢هـ)
٣. أبو الفضل نجم الدين محمد بن محمد بن أبي الصقر القرشي (٦٣٥ هـ.
٤. أبو الحسن السخاوي علي بن محمد (٦٤٣ هـ) أخذ عنه ابن مالك في دمشق القراءات القرآنية والنحو.
٥. ابن يعيش :موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي الحلبي، وقد لزمه ابن مالك بعد قدومه إلى دمشق وأخذ عنه النحو.
٦. أبو علي الشلوبين :عمر بن محمد أبو علي الأشبيلي الأزدي، المتوفى (٦٤٥هـ)

[٦] حوفان بن صالح بن عبد الله القرني، اختلاف آراء ابن مالك النحوية من خلال الأشموني للألفية، رسالة الماجستير، (المملكة السعودية: جامعة أم القرى، ١٤٢٨ هـ)، ص. ١٥.

[٧] نفس المرجع، ص. ١٦.

[٨] ابن كثير، المرجع السابق، ص. ٥١٤.

[٩] القرني، المرجع السابق، ص. ١٦-١٧.

٧. ابن عمرون أبو عبدالله جمال الدين محمد بن عمرون الحلبي النحوي (٦٤٩ هـ) .

ثالثا – تلاميذه

كان ابن مالك – عليه رحمة الله – حريصًا على تبليغ العلم، وبذله إلى طلابه، وليس غريبًا مثل هذا الخلق لمثل هذا العالم الجليل. وقد تتلمذ على يديه جلة من العلماء، ومن أشهرهم:[١٠]

١. محيي الدين النووي: يحي بن شرف (٦٧٦ هـ) . وقد لمح إليه ابن مالك عند الكلام على مسوغات الابتداء بالنكرة في قوله في متن الألفية:

وهل فتى فيكم فما خل لنا ورجل من الكرام عندنا .

٢. شمس الدين: محمد بن عباس بن جعوان (٦٧٢ هـ)

٣. بدر الدين: محمد بن محمد بن عبدالله بن مالك، المشهور ابن الناظم (ت. ٦٨٦ هـ)

٤. شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي (٧٠٩هـ) يقول عنه وقرأ النحو على ابن مالك، وبرع فيه ولازمه، وتخرج به السيوطي: جماعة وأتقن العربية، وسمع من ابن مالك.

٥. أبو الحسن: علي ابن إبراهيم بن داوود العطار الدمشقي (٠٧٢٤هـ)

٦. شهاب الدين: محمد بن سليمان الحلبي (٧٢٥ هـ)

٧. القاضي بدر الدين بن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣ هـ) .

رابعا – مكانته العلمية

يعدّ ابن مالك من مشاهير علماء القرن السابع الهجري، وأحد المصنفين ذائع الشهرة بالعلم والفضل، وقد كان بحرًا في شتى العلوم، فهو في القراءات عالمًا، حيث حفظ القرآن مبكرًا في جيان بالأندلس، وأتقن القراءات القرآنية، وتصدر لتدريسها حينما انتهى به المطاف إلى دمشق من بلاد الشام.[١١]

وقد نقل غير واحد – ممن ترجم له – أنه تولى مسيرة التدريس، يقول فيه الأسنوي: كان إمام وقته في اللغة، والنحو، والقراءات، وحفظ أشعار

[١٠] نفس المرجع، ص. ١٨.

[١١] نفس المرجع، ص. ١٩.

العرب، مشاركًا في الحديث، والفقه، دينًا صالحًا، كامل العقل والوقار والتؤدة، شافعيًا.[١٢]

فلم يعدّ من علماء النحو فقط، وإنَّما هو لغوي وقارئ وفقيه محدث. أما في اللغة فقد شاع أمره وذاع، وذلك لأنَّه بلغ درجة من المعرفة والبصيرة والإتقان، التي فاق بها أهل زمانه. يقول السيوطي: "وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها، والاطلاع على وحشيّها."[١٣]

وفي النحو كان إمامًا لا يشق له غبار، بصيرا بمذاهب النحاة، مستقصيًا لأدلتهم، وخير شاهد على معرفته الفائقة، هذا التراث النحوي والصرفي الذي خلفه من بين مطول ومختصر. وكان له معرفة بالشعر العربي، إذ عليه الاعتماد الأول في الأحكام النحوية، وقد كان مولعًا بالبحث عن الشواهد الشعرية حتى أنه كان يعثر على العديد من الشواهد، والأشعار التي يحار فيها معاصروه، وكان لهذا الأمر أثر في تغير رأيه واختلافه من مصنف إلى آخر.[١٤]

وفي ذلك قال المقري في القرني: "وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمرًا عجيبًا، وكان لأئمة الأعلام يتحيرون في أمره، وكان ذا باع كبير في علم الحديث نقل هذا عنه غير واحد."[١٥]

يقول المقري أيضًا في القرني: "وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، لأنه أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يمكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شيء عدل إلى أشعار العرب. ويستفاد من هذا أنه كان كثير الاطلاع على الأحاديث النبوية، وذو معرفة وبصيرة بها، حتى أن المقري وغيره وَصَفُوه بأنه آية في الحفظ والفهم.[١٦]

واستنتج القرني أنه إذا طالعنا ما خلفه من تراث نحوي، وصرفي، ولغوي أن ابن مالك على قدر من العلم والمعرفة، التي فاق بها أقرانه، واستحق بذلك الإمامة في العلم.[١٧] رحمه الله رحمة واسعة.

---

[١٢] الأسنوي، نفس المكان.

[١٣] السيوطي ١، نفس المكان.

[١٤] القرني، نفس المكان.

[١٥] نفس المرجع.

[١٦] نفس المرجع.

[١٧] نفس المرجع، ص. ٢٠.

خامسا– مؤلفاته

وكانت مؤلفاته أربت على ثلاثين مصنفا . ومنها في النحو:[١٨]

١. الكافية الشافية في ثلاثة آلاف بيت و شرحها (شرح الكافية الشافية) .

٢. الخلاصة الألفية وهي ملخص الكافية الشافية، وقد ترجمت إلى عدة لغات أوروبية، وعليها شروح كثيرة بلغت إلى أكثر من خمسين مصنفا وعلى بعض هذه الشروح حواشي كثيرة.[١٩] ولم يزل طلبة المعاهد يدرسونها في أنحاء العالم ولا سيما في إندونيسيا، بل يجعلها بعض المعهد كتابا أساسيا للدراسة. هذا يدل على شدة اهتمام أرباب النحاة وطلابها بهذه الألفية وحرصهم عليها .

٣. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد وشرحه (شرح التسهيل)؛

٤. عمدة الحافظ وعدة اللاحظ وشرحها .

الثالث– لمحة عن مدرستي البصرة والكوفة

الكلام على هاتين المدرستين لم يكن إلا لمحة قصيرة، وما هو إلا لأن لا يفوت الباحث شيء من التعرف ببعض أعلامها وخصائصها .

أولا– مدرسة البصرة أعلامها وخصائصها

البصرة هي مدينة في العراق على شط العرب كانت مسافتها إلى بوادي الأعراب الصافية أقرب من مسافة الكوفة إليها . تأسست البصرة في ٦٣٦ هـ في عهد عمر بن الخطاب، وازدهرت مع العباسيين وأصبحت مهدا للدروس اللغوية ومركزا ثقافيا .[٢٠] كان أوائل اللغويين فيها يبنون النحو العربي على منهج خاص يسمى بمدرسة البصرة ويسمى أعلامه بالبَصريين .

١- أعلامها

في البصرة رجال كانوا يتخصصون في العلوم العربية لهم ميل خاص في تشكيل أفكاره النحوية التي تعرف في تاريخ النحو بالمذهب البصري. نشأة هذا المذهب إذن لا تنفك من اسم المدينة البصرة ومن دور هؤلاء النحاة الذين كانوا يسكنون هذه المدينة ومن

[١٨] نفس المرجع، ص. ٢١.

[١٩] انظر تفصيل هذه الشروح والحواشي في: أبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان، (بيروت: دار الفكر العربي، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م)، ط.١، ج ١، ص ٤٨-٥٩.

[٢٠] المنجد في الأعلام، (بيروت: دار الشروق، ١٩٩٢)، ص. ١٢٩.

بعدهم من أتباع أفكارهم. وفيما يلي تسجيل بعض أعلام هذا المذهب.[٢١]

١) بو الأسود الدؤلي وتلاميذه: نصر بن عاصم، و يحيي بن يعمر العدواني، وعبدالرحمن بن هرمز بن أبي سعد المدني المقري النحوي، وحُمران بن أعين الطائي المروئ النحوي أبوعبدالله، وعنبسة بن معدان الفيل، وعطاء بن أبي الأسود الدؤلي، وأبو نوفل بن أبي عقرب، وقتادة بن دعامة الدوسي وميمون الأقرن.

٢) بن أبي اسحق الحضرمي، ومن تلاميذه، عيسي بن عمر البصري الثَقفي، وأبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ومن تصانيفه «معاني القرآن الكبير» و«معاني القرآن الصغير» ومسلمة بن عبدالله بن سعد.

٣) لخليل بن أحمد الفراهيدي ومن تلاميذه الأصمعي وسيبويه، وأبو فيد مؤرج السدوسي، وعلي بن نصر الجهضمي وغيرهم.

٤) يبويه، ومن تلامذته الأخفش الأوسط، وقُطرب،

٥) لمبّرد، ومن تلامذته ابن السراج، والزجاجي والسيرافي وأبو علي الفارسي، والرّماني وأبو علي القالي والأرحوي والأمدي.

٦) لزّجاج ومن تلامذته، أبو جعفر النحاس، وأبو العباس بن ولّاد، وابراهيم بن عبدالله أبواسحق البغدادي، وأبو الفهد البصري، وأبو علي الفارسي، والزجاجي، ووالآمدي.

٧) لزّجاجي ومن تلامذته أحمد بن محمد الفساني والكلابي، وأبو علي السفلي.

٢- خصائصها

[٢١] انظر أحمد مجرشي، المدارس النحوية: النشأة والخلاف في المفهوم والوجود، http://www.voiceofarabic.net/index ٠٩_١٠-٢٠١٢؛ ١٠:٠٥ صباحا.

لاحظ بعض العلماء المتحدثين الخصائص التي تتصف بها أفكار النحاة من المدرسة البصرية ومن هذه الخصائص ما يلي.[٢٢]

١) لاعتماد على السماع. ومن خلاله وضع نحاة البصرة قواعد نحوية وصرفية وصوتية. فقد بذلوا جهوداً واسعة في السماع عن العرب، فرحلوا إلى أعماق نجد وبوادي الحجاز وتهامة يجمعون تلك المادة من ينابيعها الصافية التي لم تفسدها الحضارة.

٢) قامة الأقيسة على الكثير المطرد من كلام العرب الفصيح. وكان رأس هذه السموعات القرآن الكريم. وأغفلوا الاحتجاج بالحديث الشريف ولم يتخذوه إماماً لشواهدهم، لأنه روي بالمعني ولم يدوّن إلا في المائة الثانية للهجرة، ودخلت في روايته كثرة من الأعاجم، فكان طبيعياً أن لا يحتجوا بلفظه وما يجري فيه من إعراب.

٣) ان منهجهم في أقيستهم من ناحية الشعر كثيرة بخلاف الحديث «فاحتجوا بطبقة الشعراء الجاهليين والمخضرمين ومتقدمي الإسلاميين.

٤) ان موقفهم تجاه القرآن الدفاع عنه وقراءاته: « وأجازوا القواعد التي وردت أو في لفظه أو في تواتر من قراءاته مع العلم أنه لم يصدر منهم أي احتجاج أو طعن في قراءة أو تخطئة لأحد القرّاء، سواء أكانت قراءاته شاذة أو غير شاذة».

ثانيا – مدرسة الكوفة: أعلامها وخصائصها

الكوفة هي مدينة في العراق على ساعد الفرات غربا، مركز قضاء بمحافظة النجف، أسسها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية قرب الحيرة سنة ٦٣٨ م. جعلها العباسيون عاصمة في سنة ٧٤٩ م قبل تأسيس بغداد. كانت مع البصرة مركزا للثقافة العربية وأنجبت علماء ومحدثين ونحويين.[٢٣] كان أوائل النحاة فيها يقرؤون النحو على مشايخ البصرة ثم يخالفونهم في بعض المسائل ويبنون أفكارهم الخاصة

[٢٢] *انظر* الحديثي، المرجع السابق، ص. ٧٥-٧٧.

[٢٣] المنجد في الأعلام، المرجع السابق، ص. ٤٧٥.

فيما يسمى بمدرسة الكوفة، ويسمى أعلامها بالكوفيين. فهذه المدرسة هي في الحقيقة فرع من مدرسة البصرة.

١- أعلامها

كما كان الأمر في البصرة، كان في الكوفة رجال يتخصصون في النحو ولهم ميل خاص في تشكيل أفكاره النحوية التي تختلف في بعض المسائل من مدرسة البصرة. وبعض أعلامها الأوائل من تلامذة أئمة البصريين مثل الخليل الفراهدي وسيبويه وغيرهما. فنشأة هذا المذهب لا تنفك من اسم المدينة الكوفة ومن دور هؤلاء النحاة الذين كانوا يسكنونها ودور من بعدهم من أتباع الكوفيين ومن أثر أعلام البصريين الأوائل. وفيما يلي بعض الأعلام من مدرسة الكوفة.[٢٤]

١)

لكسائي وهو لاشك يعدّ إمام مدرسة الكوفة، فهو واضح رسومها ومؤصل منهجها.

٢)

بو العباس ثعلب. وكان ثعلب يعتمد على ابن الأعرابي في اللغة، وعلى سلمة في النحو، وكان يروي عن ابن بجدة كتب أبي زيد، وعن الأثرم كتب أبي عبيدة...».

٣)

لفّراء: ومن تلاميذه أبو محمد سلمة بن عاصم، وأبي عبد الله الكاتب، وابن سلام اللغوي ومن أساتذته يكفينا ذكر الكسائي، ويونس بن حبيب وأبي عمران الكوفي، وأبي جعفر الرؤاسي.

٢- خصائصها

لاحظ بعض العلماء المتحدثين الخصائص التي تتصف بها أفكار النحاة من المدرسة الكوفية، ومن هذه الخصائص ما يلي:

١)

عتمادهم على النحو البصري الذي تلقونه عن عيسى بن عمر والخليل ويونس بن حبيب والأخفش وكما سمعوه في مجالسهم ودوّنوه عنهم وكما وجدوه في كتاب سيبويه الذي كان لا يفارقهم.[٢٥] فكانت المدرسة الكوفية وغيرها إذن

[٢٤] مجرشي، نفس المكان.

[٢٥] *انظر* الحديثي، المرجع السابق، ص. ١٣٨.

فرع لمدرسة البصرة إلا أنهم كانوا يقصدون أن يكونوا مستقلين وحاولوا جاهدين أن يميزوا نحوهم بمصطلحات تغاير مصطلحات البصريين والنفوذ إلى آراء خاصة بهم في بعض العوامل والمعمولات» .

٢) لاهتمام برواية الشعر، وإن كانت لم تُعنَ بالتحري فيما جمعت من أشعار، حتى يقول أبو الطيب اللغوي: «الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيّن في دواوينهم» .[٢٦]

٣) لاحتجاج بالقراءات القرآنية مطلقا متواترها وشاذها، لأن ذلك داخل في منهجهم المبني على التوسع في الرواية والأخذ بمعظم ما ورد في اللغة .[٢٧]

ولاحظ حسان أهم ما يميز الكوفيين على البصريين ثلاثة أمور:[٢٨]

١) تساع الكوفيين في الرواية بحيث لا يتشددون في فهم الفصاحة كما تشدد البصريون، وإنما يأخذون اللغة من قبائل نزحت من البادية واستقرت حتى قال لهم أحد البصريين: "نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكله اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوارز وباعة الكواميخ .[٢٩]

٢) تساع الكوفيين في القياس .[٣٠] فإذا كان البَصريون لا يقيمون قياسهم إلا على سماع يتوافر فيه شروط معينة من ناحية المادة كمّا ونوعيّا، فكان الكوفيون يتّخذون بكل مسموع لا يشترطون في السماع شيئا .[٣١]

٣) ستعمال مصطلحات غير ما أشاعه البصريون من مصطلحات النحو. فقد استقل الكوفيون بعدد من هذه المصطلحات نسي الكثير منها مرور الزمن وتسرب بعضها الآخر إلى شروح المتأخرين. ولكن

---

[٢٦] مجرشي، المرجع السابق.

[٢٧] الحديثي، المرجع السابق، ص. ١٣٩.

[٢٨] تمام حسان، الأصول: دراسة أبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو-فقه اللغة-البلاغة، (القاهرة: عالم الكتب، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠ م)، ص. ٣٨.

[٢٩] نفس المرجع.

[٣٠] نفس المرجع، ص. ٣٩.

[٣١] د. هدايات، الأصول، رسالة للمحاضرة، غير مطبوع (٢٠٠٨)، ص. ٢٧.

نقاد النحاة كانوا ينحون على الكوفيين باللوم بعدم تدقيقهم في المصطلح بصورة عامة.[٣٢]

الرابع- البحث عن موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون

ولمعرفة هذا الموقف يحاول الباحث أن ينظر أولا إلى بعض الأمثلة من المسائل الخلافية التي فيها رأي ابن مالك. هذا ليعرف ماذا يقول ابن مالك في هذه الآراء المختلفة وماذا يختار منها في تلك المسائل ؟ ثم ينظر إلى الخطوات التي سلكها ابن مالك في معالجة المسائل النحوية ولا سيما الخلافية، للحصول على فهم الخصائص التي تتصف بها هذه الخطوات فتصور بعد ذلك موقف ابن مالك من المسائل الخلافية بين أهل البصرة والكوفة.

أولا- أمثلة لبعض المسائل الخلافية التي تكون فيها آراء ابن مالك

ذكر الأنباري ١٢١ مسألة اختلف فيها البصريون والكوفيون وتطول الكلام عليها في كتابه الإنصاف في مسائل الخلاف. ويستحسن المراجعة إلى هذا الكتاب لمعرفة البحث عنها تفصيليا. وفيما يلي إنما يسجّل الباحث بعض المسائل الخلافية التي ظهرت فيها آراء ابن مالك، وهي:

١- مسألة الاختلاف في إعراب الأسماء الستة[٣٣]

قال الأنباري: ذهب الكوفيون إلى أن الأسماء الستة المعتلة وهي أبوك وأخوك وحموك وهنوك وفوك وذو مال معربة من مكانين.[٣٤] وذهب البصريون إلى أنها معربة من مكان واحد والواو والألف والياء هي حروف الإعراب.[٣٥] وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش في أحد القولين. وذهب في القول الثاني إلى أنها ليست

[٣٢] حسان، المرجع السابق، ص. ٤٠.

[٣٣] أبو البركات بن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق ودراسة: جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة/رمضان عبد التواب، (القاهرة: مكتبة الخانجي، دت)، ط.١،ص. ١٣ وما بعدها.

[٣٤] وقد شرح الأنباري هذه المسألة شرحا كافيا. ومِن هذا الشرح يفهم أن المراد بأن الأسماء الخمسة معربة من مكانين هو أنها معربة بالحركات والحروف معا. نفس المرجع، ص. ١٥-١٦. وفي ذلك قال السيوطي: "(الأسماء الخمسة معربة من مكانين) أي بالحركات والحروف معا. وعليه الكسائي والفراء من الكوفيين. انظر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ٢، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م)، ط.١، ج. ١، ص. ١٢٧

[٣٥] المراد بحروف الإعراب هنا هو الحروف التي عليها علامات الإعراب مثل الدال في زيد. وإعراب الأسماء الستة عند هذا المذهب هو حركة مقدرة على هذه الحروف. وهذا هو مذهب سيبويه والفارسي وجمهور البصريين. وهذا ما صحّحه ابن مالك بدليل قوته من جهة القياس.

بحروف إعراب ولكنها دلائل الإعراب كالواو والألف والياء في التثنية والجمع وليست بلام الفعل.[٣٦]

في هذه المسألة ذهب ابن مالك مذهب مَن جعَل إعرابَها بحروف المدّ على سبيل النيابة. وهو مذهب قُطرب والزيادي والزجاجي من البَصريين وهشام من الكوفيين.[٣٧] وقال ابن مالك إنه أسهل وأبعد عن التكلف.[٣٨] وأثبته قاعدة مقررة كما نص عليه في الكافية الشافية[٣٩] والألفية[٤٠] وشرح التسهيل.[٤١]

وبعد ذلك، بحث ابن مالك بحثا يعترف بصحة مَن ذهب إلى أنها معربة بحركات مقدرة في الحروف لأنه مذهب قوي من جهة القياس.[٤٢] وفي هذا التصحيح قال السيوطي: "الثاني، وهو مذهب سيبويه والفارسي وجمهور البصريين، وصححه ابن مالك. . . أنها معربة بحركات مقدرة في الحروف ,أنها أتبع فيها ما قبل الآخر للآخر".[٤٣] وقال الخضري: إنه (أي إعراب هذه الأسماء بحركات مقدرة–الباحث) صحّحه (أي ابن مالك) في شرح التسهيل لأن الحركات هي الأصل فلا يعدل عنها مع إمكانها.[٤٤] وهذا القول الذي يراه ابن مالك صحيحا وقويا من جهة القياس لا يُثْبته قاعدة مقررة.

---

[٣٦] الأنباري، المرجع السابق، ص. ١٣.

[٣٧] قال السيوطي: إن هذا هو المذهب المشهور وهو مذهب قُطرب والزّيادي والزجّاجي من البصريين، وهشام من الكوفيين. السيوطي ٢، المرجع السابق، ج، ١، ص. ١٢٥.

[٣٨] ويمكن النظر إلى تفصيل البحث عن هذه المسألة في شرح التسهيل. انظر جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك ١، شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، (جيزة: دار هجر، دت)، ج. ١، ص. ٤٣.

[٣٩] قال ابن مالك في الكافية الشافية:

(ذو) المعرب ارفعه بواو والألف
لنصبه وجرُه باليا عرف

[إلى قوله وقصرها من نقصهن أشهر]

انظر النص في شرح الكافية الشافية. جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك ٢، شرح الكافية الشافية، تحقيق وتقديم د/عبد المنعم أحمد هريدي، (مكة المكرمة: دار المأمون للتراث ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م)، ج. ١، ص. ١٨١ – ١٨٢.

[٤٠] قال ابن مالك في متن الألفية:

وارفع بواو وانصبن بالألف واجرر بياء ما من الأسما أصيف
[إلى قوله ... لليا كجاء أخو أبيك ذا اعتلا]

انظر النص في باب المعرب والمبني من متن الألفية. جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك ٣، متن الأفية.

[٤١] قال ابن مالك في شرح التسهيل:

"وتنوب الواو عن الضمة والألف عن الفتحة والياء عن الكسرة فيما أضيف إلى غير ياء المتكلم من أب وأخ وحم غير مماثل قروا وقرأ وخطَأ، وفم بلا ميم، وفي ذي بمعنى صاحب، والتزام نقص هن أعرف من إلحاقه بهنَّ." ابن مالك ١، ص. ٤٣.

[٤٢] انظر نفس المرجع، ص. ٤٨-٤٩.

[٤٣] السيوطي ٢، المرجع السابق، ج.١، ص. ١٢٦.

[٤٤] محمد الخضري، حاشية الحضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م)، ج. ١، ص. ٣٦.

وفي هذه الحالة، يلاحظ أن ابن مالك ولو كان يعترف بصحة مذهب سيبويه وجمهور البصريين ولكنه لا يختاره لإثباته قاعدة بل يختار مذهبا آخر هو مذهب قُطرب والزيادي والزجاجي من البَصريين وهشام من الكوفيين لكونه أسهل وأبعد عن التكلف.

٢- مسألة إعراب المثنى والجمع على حده

ذهب الكوفيون إلى أن الألف والواو والياء في التثنية والجمع بمنزلة الفتحة والضمة والكسرة في أنها إعراب وإليه ذهب أبو علي قطرب بن المستنير وزعم قوم أنه مذهب سيبويه وليس بصحيح. وذهب البصريون إلى أنها حروف إعراب. وذهب أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبرد وأبو عثمان المازني إلى أنها ليست بإعراب ولا حروف إعراب ولكنها تدل على الإعراب. وذهب أبو عمر الجرمى إلى أن انقلابها هو الإعراب. وحكى عن أبي إسحاق الزجاج أن التثنية والجمع مبنيان وهو خلاف الإجماع.[٤٥]

وفي هذه المسألة ذهب ابن مالك مذهب الكوفيين بأن جعل إعرابهما بالحروف على سبيل النيابة عن الحركات.[٤٦]

٣- مسألة رافع المبتدأ ورافع الخبر

ذهب الكوفيون إلى أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ فهما يترافعان وذلك نحو زيد أخوك وعمرو غلامك وذهب البصريون إلى أن المبتدأ يرتفع بالابتداء وأما الخبر فاختلفوا فيه فذهب قوم إلى أنه يرتفع بالابتداء وحده وذهب آخرون إلى أنه يرتفع بالابتداء والمبتدأ معا وذهب آخرون إلى أنه يرتفع بالمبتدأ والمبتدأ يرتفع بالابتداء.[٤٧]

في هذه المسألة ذهب ابن مالك مذهب سيبويه وجمهور البصريين أن المبتدأ مرفوع بالابتداء وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ.[٤٨] وقد تطول الكلام على تحليل

---

[٤٥] الأنباري، المرجع السابق، ص. ٢٥.

[٤٦] قال ابن مالك في الألفية:

بالألف ارفع المثنى وكلا إذا
بمضمر مضافا وصلا

[إلى قوله: سالم جمع عامر كمذنب]

انظر النص في باب المعرب والمبني. ابن مالك ٣، متن الألفية.

[٤٧] الأنباري، المرجع السابق، ص. ٤٠.

[٤٨] الخضري، المرجع السابق، ص. ٩١.

هذه المسألة في شرح التسهيل.[٤٩] وعلى هذا الاختيار أثبت القاعدة المقررة في الكافية الشافية[٥٠] وفي الألفية[٥١] وفي التسهيل.[٥٢]

٤- مسألة [مِنْ] للدلالة على ابتداء الغاية في الزمان

(مِنْ) حرف الجار: تكون زائدةً، وغير زائدة. فغير الزائدة: تكون لابتداء الغاية، كقوله تعالى: "من المسجد الحرام"، ويصلح معها (إلى). أي: لابتداء الغاية في المكان، أمّا دلالتها على ابتداء الغاية في الزمان فمسألة خلافيّة، منعها البصريّون، وأجازها الكوفيّون.[٥٣]

وفي هذه المسألة ذهب ابن مالك إلى مذهب الكوفيين أي أجاز دلالة (مِن) على ابتداء الغاية في الزمان.[٥٤]

٥- مسألة تقديم خبر "ليس"

منَع تقديمَ خبر (ليس) الكوفيّون، والمبرّد، وابن السّرّاج، وأكثر المتأخّرين. وجوّزه البَصريّون، والفرّاء، والفارسيّ؛ واختاره ابن بَرْهَان، والزّمخشريّ، وابن عصفور.[٥٥]

ويلاحظ أن ابن مالك يميل إلى منع تقديم خبر (ليس) كما ثبت في الألفية،[٥٦] فهو بذلك يفضّل رأي الكوفيين على البصريين.

---

[٤٩] انظر ابن مالك ١، المرجع السابق، ص. ٢٦٩-٢٧٢.

[٥٠] قال ابن مالك في شرح الكافية الشافية:

وخبرا بمبتدا أو بابتدا أو
بهما ارفع والمقدم اعضدا

وقال أهل الكوفة الجزآن قد ترافعا
وذا ضعيف المستند

انظر النص في ابن مالك ٢، المرجع السابق، ج.١، ص. ٣٣٤.

[٥١] قال ابن مالك في الألفية:

ورفعوا مبتدأ بالابتدا كذاك رفع خبر
بالمبتدأ

انظر النص في باب الابتداء. ابن مالك ٣، متن الألفية.

[٥٢] قال ابن مالك في شرح التسهيل:
"والابتداء كون ذلك كذلك، وهو يرفع المبتدأ، والمبتدأ الخبر، خلافا لمن رفعهما به أو بتجردهما للإسناد، أو رفع بالابتداء المبتدأ، أو بهما الخبر، أو قال: ترافعا". ابن مالك ١، المرجع السابق، ص. ٢٦٧.

[٥٣] الأنباري، المرجع السابق، ص. ٣١٥.

[٥٤] قال ابن مالك في الألفية:

بعِّض وبيِّن وابتدِئ في الأمكنة بمن
وقد تأتي لبدء الأزمنة

[٥٥] تُنظر هذه المسألة في الأنباري، المرجع السابق، ص. ١٣٨-١٤٣. والسيوطي ٢، نفس المرجع، ج.١، ص. ٣٧٢.

[٥٦] قال ابن مالك في الألفية:

ومنع سبق خبر ليس اصطفي وذو
تمام ما برفع يكتفي

انظر النص في باب كان وأخواتها، ابن مالك ٣، متن الألفية.

٦- مسألة بدل مضمر بمضمر

وبدل مضمَر من مضمَر:؛ كقولك: (قصدتُكَ إيَّاكَ)؛ الكوفيّون يمنعون إبدال المضمَر من المضمَر. أمّا البصريّون فإنّه يجوز عندهم إبدالُ المضمَر من المضمَر.[٥٧]

ورأى ابن مالك أن إبدال المضمر من المضمر غير جائز أي ممنوع.[٥٨] فهذا الرأي يوافق لما ذهب إليه الكوفيون، ويخالف البصريين.

٧- مسألة منع صرف ما ينصرف

ذهب الكوفيّون إلى أنّه يجوز تركُ صرف ما ينصرف في ضرورة الشّعر، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش، وأبو عليّ الفارسيّ، وابن بَرْهان من البصريّين؛ وإليه ذهب ابن مالك. وذهب البصريّون إلى أنّه لا يجوز.[٥٩]

كان ابن مالك يميل في هذه المسألة إلى مذهب الكوفة إذ يجوز عنده ترك صرف ما ينصرف لكثرة استعمال العرب في الشعر.[٦٠]

٨- مسألة جازم جواب الشرط

قال بعض البصريين جواب الشرط مجزوم بحرف الشرط، وقال بعضهم بل مجزوم بحرف الشرط وفعله، وقال بعضهم الثالث: حرف الشرط يعمل في الفعل والفعل في الجواب، أما الكوفيون فيجزمونه بالجوار، وأما البصريون فيحتجون على ما قالوا بأنّ حرف الشرط يقتضي جواب الشرط كما يقتضي فعل الشرط، ويردّ ابن الأنباري على من جزمه بحرف الشرط وفعله، لأنّ فعل الشرط أصلُ والأصلُ في الفعل ألاّ يعمل في الفعل، ويرى أنّ العامل هو حرف الشرط بواسطة فعل الشرط لأنه لا ينفك عنه، فحرف الشرط يعمل في جواب الشرط عند وجود فعل الشرط وجوابه.[٦١]

---

[٥٧] تنظر هذه المسألة في السيوطي ٢، المرجع السابق، ج. ٣، ص. ١٥٢.

[٥٨] قال ابن مالك في شرح التسهيل: "... ولا يبدل مضمر من مضمر ولا من ظاهر. وما أوهم ذلك جعل توكيدا إن لم يفد إضرابا". ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ٣، ص. ٣٢٩.

[٥٩] تُنظر هذه المسألة في الأنباري، المرجع السابق، ص. ٣٩٧.

[٦٠] قال ابن مالك في شرح الكافية الشافية: "صرف الاسم المستحقّ منعَ الصرف جائز في الضرورة بلا خلاف. ومنع صرف المستحق الصرف مختلف فيه. فأجازه الكوفيون والأخفش، وبقولهم أقول لكثرة استعمال العرب ...." ابن مالك ٢، المرجع السابق، ج. ٣، ص. ١٥٠٩.

[٦١] تُنظر هذه المسألة في الأنباري، المرجع السابق، ص. ٤٨٣.

وأما ابن مالك فالجزم عنده بفعل الشرط لا بالأداة وحدها، ولا بهما، ولا على الجوار خلافاً لزاعمي ذلك.[٦٢]

وفي هذه المسألة يميل ابن مالك إلى مذهب إمام البصريين، ويستند في قوله هذا إلى كلام سيبويه "واعلم أنّ حروف الجزاء تجزم الأفعال ويجزم الجواب بما قبله".[٦٣]

٩- مسألة جمع مقطوع إلى المقاطيع أو المقاطع

والمنقول عن جمهور البصريين من النحاة إثبات الياء جزما يقال: المقاطيع. وعن الكوفيين والجرمي من البصريين تجويز إسقاطها، يقال المقاطع أو المقاطيع جوازا واختاره ابن مالك.[٦٤] ففي هذه المسألة اختار ابن مالك مذهب الكوفيين والجرمي من البصريين.

هذه هي الأمثلة من المسائل الخلافية التي فيها رأي ابن مالك. ولعل هذه الأمثلة وغيرها من المباحث التي لم يسجّلها الباحث تساعد على فهم موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون.

ومما يلاحظ من هذه الأمثلة أن ابن مالك قد يختار مذهب البصريين أحيانا ومذهب الكوفيين في أحيان أخرى أو بعض أصحابهما. هذا يدل على أنه لا يميل إلى أحد المذاهب ميلا تعصبيا بل يقوم بنفسه على اختيار الأقوى في حسابه، مع أنه في كثير من الأحيان يوافق ومذهب سيبويه إمام البصريين.

ثانيا- الخطوات التي سلكها ابن مالك في حل المسائل النحوية

وقبل الوصول إلى معرفة موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون يحاول الباحث أن يتتبع أقواله المنتشرة في مصنفاته الكثيرة، هذا ليفهم منها كيف يفعل وماذا يقول حين يحل المشكلات والآراء المختلفة في المسائل الخلافية. ولكنه لا يتسع للباحث أن يطّلِع على جميع هذه المصنفات لضيق الفرصة واقتصار المراجع. وعلى الرغم من ذلك يحاول أن يجد الممثّل من بعض كتبه الذي يصوّر فيه عن هذا الموقف. وبعدُ، فيجد أن كتابه شرح التسهيل يتضمن أقواله المنثورة التي تصور عنه كثيرا. فيشرع في البحث عنه

---

[٦٢] ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ٤، ص. ٧٩.

[٦٣] نفس المرجع، ج. ٤، ص. ٨٠؛ وانظر أبي بشر عمرو بن بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م)، ط. ٣، ج. ٣، ص. ٦٢.

[٦٤] شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، فتح المغيث شرح ألفية الحديث، (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ)، ط.١، ص. ١١٠.

انطلاقا من هذا الكتاب مستفيدا بمقدمة التحقيق التي أرصدها الدكتور عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختوم، ثم يحاول أن يتمّه باطلاع كتبه الأخرى.

وبعد الانتهاء من الاطلاع ببعض الأقوال في شرح التسهيل يستطيع الباحث أن يقول إن هذا الشيخ الجليل ابن مالك يقف مما اختلف فيه البصريون والكوفيون موقفا علميا موضوعيا ويقوم على حذر في الأخذ والاختيار وعلى اعتبار تربوي وتعليمي في إثبات القواعد. وقد ساعد على هذا القول عدد من الخصائص التي تتصف بها خطواته عند معالجة المسائل النحوية عامة والمسائل الخلافية خاصة.

وفيما يلي بيان هذه الخطوات وخصائصها كما يفهمها الباحث من أقواله في شرح التسهيل.[٦٥]

١- فهْمُ جوهر كل مسألة خلافية

الفهم في جوهر المسألة ولاسيما الخلافية هو الخطوة الأولى اللازمة لكل رجل علمي قبل الشروع في سائر الخطوات اللاحقة، وقد يُهمِلها البعض تعجّلا وتقصيرا فيؤدي إلى فساد قوله في الحكم على مسألة.

وهذا شيخنا ابن مالك لا يقف أمام كل مسألة إلا وقد فهم ماهيتها. فيثبت له منهج لمعالجة المفهومات وبحث المسائل وحل المشكلات بأن يذكر التعريف فيذكر المحترزات، ويستقصي ذلك، ويرد على ما يمكن أن يوجه إليه من اعتراض.[٦٦] وهذا الذكر والاستقصاء والرد كل يدل على أنه قد فهم المسألة حقيقتها وماهيتها ثاقبَ الفهم. وهو أمر يبدو واضحا في كتابه شرح التسهيل لا يكاد يحتاج إلى استدلال لأن القارئ يجده في كل باب وفي كل موضع. ينظر مثالا قوله في باب الكلام[٦٧] وباب الإعراب[٦٨] وباب المبتدأ[٦٩] وباب الفاعل[٧٠] وهلم جرا.

---

[٦٥] والحق أن هذه الخطوات أمر افتراضي كامن ضمن المباحث، إذ لم يقُلْها بصراحة. وهي إنما تعرف وتستخلص من خلال القراءات على أقواله المنثورة المنتشرة في الأبواب المتفرقة.

[٦٦] عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختوم، مقدمة التحقيق على شرح التسهيل لابن مالك، (جيزة: دار هجر، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م)، ط. ١، ص. ٣٢.

[٦٧] قال ابن مالك في باب الكلام: "الكلمة لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقا أو تقديرا، أو منوي معه كذلك، وهي اسم وفعل وحرف ..." انظر تمام قوله وشرحه في ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ١، ص. ٣.

[٦٨] وقال في باب الإعراب: "الإعراب ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة، أو حرف، أو سكون، أو حذف..." انظر تمام قوله وشرحه في نفس المرجع، ج.١، ص. ٣٣.

٢- قراءة جميع الآراء المختلفة في كل مسألة قراءة دقيقة

القراءة في جميع الآراء التي تتعلق بالمسألة المبحوثة خطوة محمودة عند أهل العلم في العملية العلمية. حتى لا تمر مسألة إلا وقد قرأها الدارس وفهمها . فلازم عليه أن يقرأ أكثر ما أمكنه القراءة. وهذا الشيخ العظيم لا تفوته هذه الخطوة. فإنه قد كان يقرأ المذاهب التي تطورت حتى حينه، فهو يقرأها قراءة دقيقة مستوعبة بالإحاطة والاستقصاء . وقد دل على هذه الخطوة أغلب أقواله في شرح التسهيل عند رصد المسائل ولا سيما الخلافية. ولعل خير مثالها قوله في مسألة الأسماء الستة.[٧١]

٣- فهم جوهر كل رأي في كل مسألة

معروف أنه لا يليق لأحد أن يستجيب لأيّ رأي حتى يفهم جوهره فهما صحيحا . وإذا كان في الخطوة الأولى يوجه الاهتمام إلى المسألة نفسها، ففي هذه الخطوة يوجه الاهتمام إلى آراء العلماء في هذه المسألة. وكان الشيخ ما انفك يستقصي كل رأي استوعبه وينظر إليه نظرة الباحث عن قائله، وحقيقته وأصوله ودلائله، ثم يختار بعد ذلك ما يحسن الكلام عليه وما لا يحسن، فيضعه في ميزان النقد .[٧٢]

٤- ذكر الآراء التي يحسن الكلام عليها

لم يكن كل رأي في مسألة ليذكرَه ابن مالك ويتكلم عليه في كتابه. فكان يذكر البعض ويُهمِل الآخر. وإنما يختار منه ما يحسن ذكره للبحث. ولعل هذا الاختيار يرجع إلى قدر الفائدة المرجوة لأجل الإصلاح علميا كان أم تعليميا .[٧٣] فلا يتكلم عبثا على الخلافية التي يخاف منها ظهور التعصب والجدلية، ولم يذكر كذلك حوار المنافسة أو المجادلة التي تعتبر عيبا في السمع، إذ لا فائدة فيه لأهمية التعليم.

٥- نقد كل رأي

---

[٦٩] وقال في باب المبتدأ:"وهو ما عدم حقيقة أو حكما عاملا لفظيا من مخبر عنه، أو وصف سابق رافع ما انفصل وأغني ..." انظر تمام قوله وشرحه في نفس المرجع، ج.١، ص. ٢٦٧.

[٧٠] وقال في باب الفاعل:"وهو المسند إليه فعل، أو مضمن معناه تام مقدم غير مصوغ للمفعول ..." انظر تمام قوله وشرحه في نفس المرجع، ج. ٢، ص. ١٠٥.

[٧١] انظر ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ١، ص. ٤٣.ص. ٤٣.

[٧٢] قد تمثلت هذه الخطوة في البحث عن إعراب الأسماء الستة، وفي رافع المبتدأ وغيرهما.

[٧٣] ومن مثال ذلك أن المذاهب في مسألة إعراب الأسماء الستة اثنا عشر مذهبا كما فصّلها السيوطي في همع الهوامع. ولكنه إنما يذكر منها ابن مالك خمسة مذاهب، ويطول الكلام بذكر الآخر.

وما فتئ ابن مالك ينظر إلى كل رأي ذكَره في مباحثه نظرة التحليل والنقد، وهذه الخطوة النقدية تظهر في أقواله عند معالجة المسائل الخلافية. فيحكم على كل رأي بالصحة والفساد والصواب والخطأ والقوة والضعف والراجح والمرجوح والسهولة والتكلف وما إلى ذلك.

وقد دل عليه ما قرأ الباحث في بعض النصوص من شرح التسهيل لابن مالك من الجزء الأول حتى الجزء الرابع، فوجد أغلب أقواله في المسائل الخلافية لا يخلو من النقد على كل رأي رصده. ومن مثاله قوله في مسألة (أن المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر). [٧٤]

٦- اختيار رأي لإثباته قاعدة

كان النقد السابق يتخذه ابن مالك طريقة لاختيار ما عنده أحسن لإثباته قاعدة مقررة. فيفضّل الرأي الذي يراه الأصحّ والأصوب، والأقوى، والأرجح، والأسهل على سائر الآراء. ولكن الأمر عجيب لأن هذا الأحسن المختار لا يكون دائما مما يعدّه صحيحا، لأنه قد اختار ما يراه أسهلَ وأبعدَ عن التكلف حينما أهمَلَ ما يراه صحيحا وقويا من جهة القياس. هذا كما ظهر في اختياره وجه الإعراب للأسماء الستة. فإنه يختار مذهبَ مَن جعل إعرابها بحروف المدّ على سبيل النيابة عن الحركات لأن هذا عنده أسهل وأبعد عن التكلف، [٧٥] ولم يختر في ذلك مذهب مَن جعل إعرابها بالحركات المقدرة مهما يكون عنده صحيح وقوي من جهة القياس. [٧٦] وفي ذلك أكّد عبد الرحمن السيد أن اختيار الأسهل والأبعد عن التكلف منهج من مناهج ابن مالك. [٧٧] وهذا يعرف من أقواله عند الكلام على المسائل الخلافية؛ ومن الأمثلة، قوله:

١) عند الكلام على إعراب الأسماء الستة: [ومنهم من جعل إعرابها بحروف المد على سبيل النيابة عن الحركات، وهذا أسهل المذاهب وأبعدها عن التكلف]. [٧٨] هكذا، قاله ابن مالك؛

[٧٤] انظر ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ٤، ص. ١١-١٣.

[٧٥] نفس المرجع، ج.١، ص. ٤٣.

[٧٦] نفس المرجع، ج.١، ص. ٤٨-٤٩.

[٧٧] السيد، المرجع السابق، ص. ٤٢.

[٧٨] ابن مالك ١، المرجع السابق، ج. ١، ص. ٤٣.

٢) وعند الكلام على السين وسوف: [والقول بأن السين فرع سوف لا يفضي إلى مثل ذلك، فوجب قبوله والتمسك به لأنه أبعد عن التكلف]؛[٧٩]

٣) وعند الكلام على الأفعال الخمسة وأنها ترفع بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها: [وزعم الأخفش أن هذه النون دليل إعراب مقدر قبل الثلاثة الأحرف، وهو قول ضعيف، لأن الإعراب مجتلب للدلالة على ما يحدث بالعامل، والنون وافية بذلك، فادعاء إعراب غيرها مدلول عليه بها مردود لعدم الحاجة إليه والدلالة عليه] .[٨٠]

٧- تقرير القاعدة وإثباتها

فالخطوة الأخيرة من تلك الخطوات هي تقرير القاعدة وإثباتها . وهذا ما حصل عليه ابن مالك يعني إثبات القاعدة المقررة كما نصه في كتبه منها: شرح التسهيل (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد)، وشرح الكافية الشافية والألفية.

ج- خصائص الخطوات التي سلكها ابن مالك

ومن خلال التحليل للخطوات التي سلكها ابن مالك في معالجة المسائل النحوية كما مرّ ذكرها، يعرف أن هذه الخطوات تتصف بالخصائص الموضوعية، وهي:

١- عدم التعصب. فكان ابن مالك في خطواته العلمية يواجه الآراء المختلفة مواجهة متوازنة ويقف منها بموقف التحادي بأن لا يميل إلى أحد ميلا تعصبيا .

٢- الانتقاد والتحقق. وهو مع ذلك يواجه تلك الآراء مواجهة الانتقاد والتحقق بأن تتبع أصولها وأدلتها وعلتها حتى يرى صحتها من فسادها، سهولتها من تكلفها ثم يقبل ما يراه أحسن للقبول.

٣- الاحترام. ويراد به أن ابن مالك له صفة الحرمة والتعظيم، فهو يحترم ويعظم العلماء القدماء. فيعترف بصحة مذهب إذا كان صحيحا ولو لا يختاره لجعله قاعدة مقررة. ومن أقواله التي تدل على هذا الاحترام قوله في رأي ثعلب أن نون التثنية عوض من التنوينين ونون الجمع عوض من التنوينات على حسب الآحاد، وضعف هذا

---

[٧٩] نفس المرجع، ج. ١، ص. ٢٥-٢٦.

[٨٠] نفس المرجع، ج. ١، ص. ٥١.

القول غير خاف، عفا الله عن قائله وعنا]؛[٨١] وقوله: [ومن العرب من يقول: هذا هنوك، ورأيت هناك، ومررت بهنيك، فهو قليل، فمن لم ينتبه على قلته فليس بمصيب، وإن حظي من الفضائل بأوفر نصيب].[٨٢]

٤- الحكمة. وهذه الصفة تظهر عند ما يختار ابن مالك المذهب الأسهل والأقرب عن التكلف لجعله قاعدة مقررة ويترك المذهب الآخر ولو كان صحيحا وقويا من جهة القياس. وإنما يتركه لأن فيه قدرا من التكلف وإنما يختار الأسهل لأن فيه قدرا من الصواب. واختيار الأسهل هذا يدل على أن ابن مالك ذا صفة الحكمة، حيث يرى فيه تسهيل الطلاب لعملية التعلم، فلا يتمسك برأي على حسب القوة والصواب فقط بل يميل إلى التيسير على قدر عقول الدارسين. هذا إذن موقف حسن ذو قيمة تربوية وتعليمية.

نظرا إلى هذه الخصائص التي تتصف بها خطوات الشيخ ابن مالك يتبين للباحث أن هذا الشيخ الجليل لا يتعصب لمذهب ما، بصريا كان أم كوفيا، كل يحاسب على ميزانه. فينقد على جميع الآراء المختلفة نقدا يقوم على حجة وأدلة، نقدا غايته الإصلاح في العلم والتعليم لا لهجوم على واحد ولا لدفاع عن آخر. فالتأييد والمعارضة كان يوجّههما ابن مالك إلى كلا المذهبين أو إلى بعض من أصحابهما. فمن لم يستوف شروط القبول لم يستحق الإثبات.[٨٣] وهذه القواعد الثابتة في نظم الكافية الشافية وفي نظم الألفية إنما هي القاعدة المقررة المختارة. فلا عجب أنه مقبول عند معظم الدارسين في أقطار العالم.

اعتمادا على مجموع هذه الخصائص فيمكن للباحث أن يقول باليقين إنه لمن الخصائص الموضوعية في ضوء العادة العلمية أو بعبارة أخرى إنها من المواقف الموضوعية العلمية المعترف بها في هذا العصر والتي لا بد لكل طالب من تمسكها.

الخامس- الخاتمة

يرى الباحث أنه سيتطول الكلام على هذه المسألة حسب زيادة البيانات وإدراكها وتحليلها

[٨١] نفس المرجع، ج. ١، ص. ٧٥.

[٨٢] نفس المرجع، ج.١، ص. ٤٠.

[٨٣] ومع ذلك كان ابن مالك يوافق الإمام سيبويه في أكثر ما ذهب إليه واستشهد في مواضع كثيرة بما قاله. السيد، المرجع السابق، ص. ٤٤.

وتفسيرها، وإنما ينتهي إلى هنا لعجزه عن مراجعة جميع ما يتعلق بها . ومهما يكن من أمر فهو يود أن يختتم هذا البحث اختتاما حسنا بالاستنتاج والاقتراح. ففي ختام هذه الكتابة يمكن أن يستخلص النتيجة أن الموقف الذي يتمسك به ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون هو موقف حذر علمي موضوعي وتربوي. بمعنى أنه لا يميل إلى أحدهما ميلا تعصبيا بل يقيم أفكاره النحوية على أساس موضوعي، وقد دلت عليه خصائص خطواته عند حل المشكلات والمسائل النحوية عامة والمسائل الخلافية خاصة . فهو بذلك بلغ إلى تقعيد النحو بنجاح حتى يعترف معظم النحاة بدوره العظيم في تطوير النحو .

ويقترح الباحث لمواصلة هذا البحث لتحقيق هذه النتيجة بإحضار مزيد من البيانات وتحليلها كما يقترح أيضا للبحث عن موقف ابن مالك مما اختلف فيه البصريون والكوفيون بالنظر إلى ناحية المنهج والأدلة والأصول والعلة والمصطلحات .

هذا، ومهما بذل الباحث كل الجهد فإنه لم ينل شيئا من التمام . والله الموفق إلى أقوم الطريق . والحمد لله رب العالمين .

قائمة المراجع

ابن الأنباري، أبو البركات. دت. الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق ودراسة: جودة مبروك محمد مبروك، مراجعة/رمضان عبد التواب القاهرة: مكتبة الخانجي.

ابن علي المرادي، أبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي. ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٨ م. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان. بيروت: دار الفكر العربي.

ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء. ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م. البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي. جيزة: دار هجر.

ابن مالك ١، جمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله. دت. شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون. جيزة: دار هجر.

_____ ٢. ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م. شرح الكافية الشافية، تحقيق وتقديم د/عبد المنعم أحمد هريدي. مكة المكرمة: دار المأمون للتراث.

_____ ٣، متن الأفية.

الأسنوي، جمال الدين عبد الرحيم. ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م. طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار الكتب العلمية.

الحديثي، الخديجة. ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م. المدارس النحوية. الأردن: دار الأمل.

حسان، تمام. ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠ م. الأصول: دراسة أبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو-فقه اللغة-البلاغة. القاهرة: عالم الكتب.

الخضري، محمد. ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م. حاشية الحضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. بيروت: دار الفكر.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. ١٤٠٣ هـ. فتح المغيث شرح ألفية الحديث. لبنان: دار الكتب العلمية.

لسنجرجي، مصطفى عبد العزيز. ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ م. المذاهب النحوية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، مكة المكرمة: الفيصلية.

سيبويه، أبي بشر عمرو بن بن عثمان بن قنبر. ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م. الكتاب، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.

لسيد، عبد الرحمن ومحمد بدوي المختوم. ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م . مقدمة التحقيق على شرح التسهيل لابن مالك. جيزة: دار هجر.

السيوطي ١، جلال الدين عبد الرحمن. ١٩٣٣ هـ/١٩٧٩ م. بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار الفكر.

_____ ٢. ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية.

لطنطاوي، محمد. دت. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. القاهرة: دار المعارف.

لقرني، حوفان بن صالح بن عبد الله القرني. ١٤٢٨ هـ. اختلاف آراء ابن مالك النحوية من خلال الأشموني للألفية، رسالة الماجستير. المملمة السعودية: جامعة أم القرى. غير مطبوع.

مجرشي، أحمد. ٢٠١٢. المدارس النحوية: النشأة والخلاف في المفهوم والوجود، http://www.voiceofarabic.net/index .

المنجد في الأعلام. ١٩٩٢. بيروت: دار الشروق.

هدايات، د. ٢٠٠٨. الأصول، رسالة للمحاضرة، غير مطبوع.